

ظاهرة التذكير والتأنيث في العامية

الجزائرية وعلاقتها بالفصحى

الدكتور عبد الكريم عوفي

أستاذ محاضر بمعهد اللغة العربية وآدابها

جامعة باتنة (الجزائر)

ظاهرة (التأنيث والتذكير) من الظواهر اللغوية التي تشترك فيها اللغات البشرية جمعاء، ولكن معاملة الجنس تختلف من لغة إلى أخرى.

فاللغات السامية الأولى تفرق بين المذكر والمؤنث بوضع كلمة للمذكر وأخرى للمؤنث^(١).

وفي اللغات الهندية الأوروبية يستعمل لفظ للمذكر ولفظ آخر للمؤنث، ففي الإنجليزية يستعمل لفظ (Son) ويعنى (ابن) مقابل لفظ (daughter) ويعنى (ابنة)، وفي الألمانية يستعملون لفظا للمذكر، ولفظا للمؤنث، ولفظا للمحايد^(٢).

إن " لغة الألبونكين algonquin تميز بين جنس حي وجنس غير حي، ولا يهتما بعد ذلك ما يدخل تحت كل واحد من الجنسين من أشياء"^(٣).

وقد ذكر فندريس أيضا أن " في لغة الماساي masai من شعوب شرق إفريقيا يوجد جنس لما هو كبير وقوي، وجنس آخر لما هو صغير وضعيف"^(٤).

(١) البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث، لابن الأنباري (مقدمة المحقق) نمس ٣٧، وينظر: من أسرار اللغة، للدكتور إبراهيم أنيس، ص ١٦٠.

(٢) البلغة، لابن الأنباري (مقدمة المحقق)، ص ٣٨، واللغة، لفندريس، ص ١٢٩.

(٣) اللغة، لفندريس، ص ١٣١.

(٤) اللغة، ص ١٣٢.

وبعض اللغات تقسم الأسماء الموجودة فيها من حيث الجنس إلى ثلاثة أقسام: مذكر ومؤنث وقسم ثالث هو ما يعرف في اللغات الهندية الأوروبية باسم (المحايد) أو (المبهم) neuter وهو في الأصل ما ليس مذكراً ولا مؤنثاً^(١).

وقد عرف فندريس المبهم neuter بقوله: " والمبهم في الهندية الأوروبية جنس على حدته، فهو يقابل الجنسين الشخصيين معاً، ولكنه أقل انتشاراً منهما"^(٢).

وذكر الدكتور إبراهيم أنيس أن أفرع اللغات اللاتينية القديمة، كالفرنسية والإسبانية والإيطالية فقدت الظاهرة الشائعة في اللاتينية القديمة (الأسماء المحايدة)، وأصبحت في اللغات الحديثة إما مؤنثة أو مذكرة^(٣).

ويرى الدكتور رمضان عبد التواب أن الساميات - ومنها العربية - قد وزعت القسم المحايد على القسمين الآخرين، وصارت الأسماء فيها إما مذكرة وإما مؤنثة^(٤). لكن المستشرق برجشتراسر يفترض أن اللغات السامية كانت تقسم الأسماء في الزمن القديم تقسيمات متفرعة أكثر من الحاضر، ولا يعرف ما إذا كان تمييز المذكر والمؤنث، في ذلك التقسيم الأصلي أم مازجه حديثاً^(٥).

وتختلف اللغات فيما بينهما من حيث التذكير والتأنيث داخل الفصيلة اللغوية الواحدة، فما كان مؤنثاً في لغة قد يكون مذكراً في لغة أخرى، والعكس أيضاً.

فكلمة (شمس) مثلاً اسم مذكر في الفرنسية، ومؤنث في العربية^(٦).

و(الكف) في العربية تذكر وتؤنث، وفي العبرية والسريانية مؤنثة، وهي مذكر في الآرامية^(٧).

(١) انظر: مراجع الهامش (١) أعلاه.

(٢) اللغة، ص ١٢٩.

(٣) من أسرار اللغة، ص ١٦٠.

(٤) مقدمة البلغة، لابن الأنباري، ص ٣٨.

(٥) التطوير النحوي للغة العربية، ص ١١٤، ١١٥.

(٦) مقدمة محقق البلغة، لابن الأنباري، ص ٤٠، والدراسات اللغوية عند العرب، محمد حسين آل ياسين، ص ٣٤٧، ومن أسرار اللغة، ص ١٦٢.

(٧) من أسرار اللغة، ص ١٦٢، والدراسات اللغوية عند العرب، ص ٤٨٥، ٤٨٦.

وقد أولى علماؤنا الأوائل هذه الظاهرة عناية كبيرة، فألفوا فيها كتباً ورسائل جمعوا فيها الألفاظ التي يقع فيها التذكير والتأنيث، وبينوا المذكر والمؤنث منها، سواء كان اللفظ حاملاً لعلامة من علامات التأنيث المنصوص عليها، أو كان اللفظ المؤنث سماعياً^(١) .

والمقصود بالمذكر والمؤنث عند علمائنا العرب هو ما نقرأه في قول ابن الحاجب : "المؤنث ما فيه علامة تأنيث لفظاً أو تقديراً، والمذكر بخلافه، وعلامة التأنيث التاء و الألف مقصورة وممدودة"^(٢) . وكذلك ما نقرأه في قول ابن عقيل : " أصل الاسم أن يكون مذكراً، والتأنيث فرع عن التذكير، ولكون التذكير هو الأصل استغنى الاسم المذكر عن علامة تدل على التذكير، ولكون التأنيث فرعاً عن التذكير افتقر إلى علامة تدل عليه وهي التاء، والألف المقصورة أو الممدودة، والتاء أكثر في الاستعمال من الألف، ولذلك قدرت في بعض الأسماء، كعين وكتف"^(٣) .

وإذا أردنا التعرف على الظاهرة في اللغات السامية فإننا نجد الدراسات المقارنة- شقيقات العربية- تفيد أن العربية تشترك مع الساميات في استعمال علامات التأنيث (التاء والألف المقصورة أو الممدودة) للدلالة على اللفظ المؤنث^(٤).

ويرى برجستراسر أن التاء مع الفتحة قبلها، أي (At) سامية الأصل، وأن الألف المقصورة توجد في العبرية والآرامية، والألف الممدودة لا يقابلها في اللغات السامية إلا القليل^(٥).

وبعد هذا العرض الموجز لملامح ظاهرة التذكير والتأنيث في اللغات عامة والعربية خاصة^(٦)، أقدم وصفاً تحليلياً للظاهرة في العامية الجزائرية مع إبراز أوجه التقائها مع العربية الفصحى وافتراقها عنها .

(١) مقدمة محقق البلغة، ص ٤٩، ومقدمة محقق المذكر والمؤنث، لأبي بكر بن الأنباري، ص ١- ١٢

(٢) الكافية في النحو ١٦١/٢، وانظر: شرح جمل الزجاجي ٣٦٩/٢ .

(٣) شرح ابن عقيل ٩١/٤ .

(٤) التطوير النحوي للغة العربية، ١١٣، ومقدمة البلغة، ص ٤٢ .

(٥) التطوير النحوي للغة العربية، ص ١١٥ .

(٦) لم أتوسع في عرض الضوابط التي حددها علماء العربية لظاهرة الجنس، لأن ذلك يعدنا عما نهدف إليه من هذه الدراسة .

سلك العامة مسلكا مغايرا للعربية الفصحى في تأنيث الأسماء وتذكيرها، إذ تكاد (التاء) تكون العلامة الرئيسة للتأنيث في العامية الجزائرية. فقد تبين من المادة المسموعة من أفواه الناس في أماكن مختلفة، وفي جهات عدة من الجزائر أن :

١- الألفاظ التي وردت في العربية الفصحى مؤنثة أو يستوي فيها التذكير والتأنيث^(١)، أو خالية من إحدى علاماتي التأنيث، تؤنث بالتاء، وذلك في مثل:

أ- الألفاظ الدالة على أحوال المؤنث، أو يشترك فيها الجنسان (المذكر والمؤنث)، والتي على وزن (فاعل)، و (فعول)^(٢)، نحو: طالفة، وعانسة، وظاهرة، وحاملة، وصابرة، وصارفة^(٣)، ودافعة^(٤)، وعاقرة^(٥)، وقد حولوا (فاعل وفعول) في نطقهم إلى (فاعلة)، ونطقهم هذه الصفحات بالتاء هو الأكثر وبلا تاء هو القليل .

وهذه الصفات جاءت في العربية الفصحى بلا تاء، لأنها أصلية في التأنيث^(٦).

ب- الألفاظ التي يستوي فيها المذكر والمؤنث، والتي تجيء على وزن (فعول) نطقها العامة على الأصل كما في الفصحى بلا تاء وهو قليل، أو يلحقون بها التاء وهو الأكثر، كقولهم : عرُوسة عَجوزة، فحولوا (فعول) إلى فعولة).

ولفظ (عجوز) يستعمله العامة للشيخ والمرأة على حد سواء، بالتاء وبلا تاء، فهم يقولون للمرأة؛ صغيرة كانت أم كبيرة : (عجوزة، وعجوز)^(٧)، وبعض الناس من الكبار في المجتمع الجزائري يتحاشون ذكر اسم المرأة عامة،

(١) ينظر: المخصص لابن سيدة ١٢٤/١٦

(٢) البلغة، لابن الأنباري ص ٨٣-٨٤

(٣) للكلية عندما تشتهى الفعل .

(٤) يقال للشاة عندما تكون عشاء: دافعة، وفي منطقة الحضنة (المسيلة والجلافة وبريكه) سمعتم يقولون أيضا : النعجة نَفَعُ، والتبياه نَفَع .

(٥) لهجة تلمسان وعلاقتها بالعربية الفصحى (ماجستير مخطوطة) التيجيني بن عيسى، ص ٤٠ .

(٦) ينظر: شرح الفصيح : ابن هشام اللخمي، ٢/ ٢٨٤ .

(٧) يقال في المثل العامي الجزائري : (الغيرة والحيرة ترد لعجوز كبيرة) ينظر : العامية الجزائرية

وصلتها بالعربية الفصحى د/ عبد المالك مرتاض، ص ١٢٣، وينظر: لهجة جيجل وعلاقتها بالعربية

الفصحى، ص ١٤٦ .

لاعتقادات معينة فيكونون عن ذكرها باسم (لعجوز)، وإذا ورد في سياق الحديث الكلام عن المرأة قالوا: (داري، أو أهلي، أو عبادي، أو عيالي، أو عجوزي، أو مولات الدار) مع إلحاق كلمة من هذه الكلمات المستعملة عبارة (أكرمكم الله)، وهذا الاستعمال جار على السنة العامة ممن يسكنون الأرياف والقرى، ولا سيما مناطق الجنوب، لأن لفظ المرأة من الألفاظ المحظورة، التي تعرف في علم اللغة باسم (الفاظ اللامساس) taboo^(١).

وهذا الاستعمال للفظ (عجوز) بلا تاء مروي عن العرب الفصحاء، فقد ورد صاحب اللسان أن "العجوز والعجوزة من النساء: الشبيخة الهرمة"^(٢).

ج- يؤنثون لفظ (زوج) فيقولون: (زوجة) إذا كانوا يريدون زوجة الرجل، واللفظ مطرد الاستعمال، ولا يستعملون (زوج) للمؤنث إطلاقاً وقديماً ذكر الفراء أن زوجاً المراد به المؤنث فيه لغتان: (زوج) لغة أهل الحجاز، و(زوجة) لغة تميم وكثير من قيس وأهل نجد^(٣).

وقد ورد الاستعمالان في القرآن الكريم، إذ قال تعالى: (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ)^(٤). وقال أيضاً: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِئْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعِكُنَّ وَأَسْرَحُكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً)^(٥).

ويظهر أن العامة في الجزائر قد سلكت مسلك التميميين، لأن لغتهم أكثر شيوعاً في الاستعمال^(٦). ولعل ذلك يرجع إلى تأثير القبائل العربية - ومنها التميمية، التي نزلت عقب الفتح الإسلامي في مناطق مختلفة من الجزائر، وقد يكون الاستعمال ناتج عن القياس الخاطئ.

وقد روت لنا كتب اللغة ومعجماتها أن الأصمعي كان ينكر على أبناء عصره استعمال لفظ (زوجة) ويراه لحناً. يقول: "ما أقل ما تقول العرب الفصحاء فلانة زوجة فلان، إنما تقول: زوج فلان"^(٧). والدراسات

(١) ينظر: دور الكلمة في اللغة: ستيفن أولمان، ص ١٧٤، والتطوير اللغوي مظاهره وعلاؤه وقوانينه،

ط: ٢، ص: ٢٠٣.

(٢) اللسان (عجز) ٦٩٢/٤

(٣) البحر المحيط، لأبي حيان ٣/٣٨٠، والمخصص ٢٤/١٧

(٤) سورة البقرة: ٣٥

(٥) سورة الأحزاب: ٢٨

(٦) المذكر والمؤنث، لابن التستري، ص ٨٠، والمخصص ٢٤/١٧.

(٧) الموشح، للمرزباني، ٢٣٨، ٢٨٤، وينظر: المخصص ٢٤/١٧.

المقارنة أثبتت أن لفظ (زوجة) ليس من أصل سامي، فهذا الدكتور محمود فهمي حجازي يقول: إن لفظة (زوجة) يوناني (zeugos) دخل الآرامية أول الأمر وكانت تنتهي بفتحة طويلة (زوجا) تكونت إلى جانب صيغة (زوج) غير المنتهية بأداة التعريف، ثم انتقلت إلى العربية فحملت معنى كلمة (بعل) التي تعني الرجل المتزوج، وزوجته هي (الزوج) ثم اختصت كلمة (زوج) بالمذكر و(زوجة) بالمؤنث، وبالتالي يكون مما اقترضته العربية في عصورها الأولى من اللغات الأخرى، وعلى مر السنين أخذ مكانته في المعجم اللغوي العربي، فصار يؤدي وظيفته، وهي دلالة على المؤنث (امرأة الرجل) إلى جانب كلمة (زوج)^(١).

وقد حاول عبد الجليل مرتاض أن يفسر استعمال اللفظ في منطوق القبائل العربية فقال: إن أهل الحجاز قاسوا (زوج) على كلمات مماثلة بلا تاء، مثل: عنق، وذراع، وسبيل، وطريق^(٢)، لكن هذا التفسير - فيما يبدو لنا - مستبعد، لأن هناك كلمات كثيرة أنثت بلا تاء.

د- أفاظ وردت في العربية الفصحى مؤنثة عن طريق السماع، أي: تلك الألفاظ التي لا تلحقها علامة من علامات التأنيث، والعامية يؤنثونها بإلحاق آخرها تاء، مثل: القدر^(٣)، والكبد^(٤)، والقدم^(٥)، والفرس^(٦)، والعقرب^(٧) هذه الألفاظ سمعت كثيراً من عوامنا - ولا سيما في منطقة الجنوب - ينطقونها بالتاء (القدرة^(٨)، والكبدة، والقدومة، والفرسة، والعقربة) أما نطقهم الكلمات السابقة بلا تاء فهو مسموع لكنه قليل. والملاحظ أن هذه التاء التي

-
- (١) علم اللغة العربية، ص ٢١٤ .
 - (٢) الفوارق النحوية بين اللهجات العربية الفصحى، (ماجستير مخطوطة)، ص ١٢٤ .
 - (٣) المخصص ١٦/١٧ .
 - (٤) البلغة، ص ٧٠ .
 - (٥) البلغة، ص ٧٠ .
 - (٦) المذكر والمؤنث، لأبي بكر الأنباري ١/٧٩، ٥٩ .
 - (٧) اللسان (عقرب) ٤/٨٤٠، وفيه: أن العقرب للذكر والأنثى، وقد يؤنث على عقربة .
 - (٨) ينطق العامة القاف كالجيم المصرية.

تلقّق آخر الأسماء والصفات، مثل : رَحِيمَه، وَحَنِينَه، وَكَبِيرَه، وَصُغِيرَه^(١)، وَخَشِينَه، وَمَلِيحَه، لا يتلفظ بها تاء خالصة، بل يقفون عليها، فهي كالهاء في حالة الوقف في العربية الفصحى .

ويسرى الدكتور رمضان عبد التواب أن ظاهرة الوقف " انتقلت إلى الكلام المتصل كذلك في كل من الآرامية والعبرية، إلى ألف مد فيقال في الآرامية (bisa) (رديئة)، وفي العبرية (yalda) (بنت)، وفي اللهجات العربية (sagarakbira) (شجرة كبيرة)، ولم تبق التاء المفتوح ما قبلها إلا عند الاتصال بمضاف إليه^(٢).

هـ - ويؤنثون ما كان في الأصل على صيغة (فعلى) بفتح الفاء وكسرها بإلحاق اللفظ تاء في الأخير، فيقولون : دقله، وحلوه، وليله، وسلوه، ونجوه . في : دقلى، وحلوى، وليلى، وسلوى، ونجوى .

٢- الأسماء التي جاءت في اللغة العربية الفصحى مؤنثة بألف التأنيث المقصورة، وهي التي جاءت على صيغة (فعلى) بفتح الفاء، أو على أوزان أخرى يؤنثها العامة بالتاء، فيقولون : شبعانه، وجوعانه، سكرانه^(٣)، وعطشانه، وكسلانه، وزعفانه، وحيرانه، ومليانه، وفرعانه، وتعبانه، وبردانه، وفشلانه، وقلقانه، وندمانه، وهربانه، وفرحانه، غضبانه^(٤) ،

ويلاحظ على هذه الأسماء (الصفات) أن العامة جاءت بها على (فعلانية) وهو مسلك مغاير للفصحى يطرد في السنة الجزائرين عامة، ومسموع في بعض اللهجات العربية المعاصرة في الوطن العربي^(٥) .

(١) تتلقّق في بعض المناطق مصغرة.

(٢) مقدمة البلغة، ص ٤٤ .

(٣) ينطق سكان المناطق الجنوبية السين مشوباً بالصاد.

(٤) ينطق سكان المناطق الجنوبية أيضاً العرين قافا باطراد . ينظر لهجة بركة وصلتها بالعربية

الفصحى (ماجستير): عبد الكريم عوفي، ص ٤٥، ٤٧، ١٣٨، ولهجة جيجل، ص ١٤٨ .

(٥) ينظر: معجم تيمور الكبير ١٢٧/٢ .

إن هذا الاستعمال اللهجي في السنة العامة له أصول في عربيتنا القديمة إذ أوردت كتب اللغة ومعجماتها أن قبيلة بني أسد - وهي من القبائل التي أخذت عنها العربية الفصيحة - كانت تقول: سكرانة، وملانة، أي أنها خالفت الفصحى في تأنيث النعوت التي على (فعلان وفعلى) (١) .

وقد أجاز المجمعان اللغويان المصري والعراقي، في أثناء انعقاد دورتهما في بغداد عام ١٩٦٥م، أن يؤنث كل وصف على صيغة (فعلان)، على (فعلانة) (٢) .

٣- الأسماء المؤنثة في العربية الفصحى، التي جاءت على صيغة (فعلاء)، مثل: حمراء، وزرقاء، وصفراء، وينطقها العامة بإسقاط الألف والهمزة، ويلحقون آخرها تاء، فيقولون: حمرة، وزرقه، وصفره، وبيضه، وخضره، وعميه، وكحله، وسوده، وعرجه .

وهذا الاستعمال في السنة عوامنا له نظير في معظم اللهجات العربية المعاصر في الأقطار العربية (٣) وقد خالفت العاميات العربية الفصحى في هذا الاستعمال .

ويبدو أن علامتي التأنيث؛ الألف المقصورة والممدودة في طريق الانقراض من اللهجات العربية المعاصرة، ولعل " السر في زوال هاتين العلامتين وحلول العلامة الأولى، وهي البناء محلها هو ميل اللغة إلى أن تسير في طريق السهولة والتيسير، فبدلاً من أن تكون عندنا للتأنيث ثلاث علامات تصبح في اللغة علامة واحدة لكل أنواع المؤنث " (٤) .

٤- أما الجنس المميز واحده بهاء التأنيث فإنهم يذكرونه ويؤنثونه، وتذكيره أكثر أطراداً . فهم يقولون : هذا البقر، هذا النخل، هذا التمر، هذا النحل، ويقولون في المفردة المؤنثة: بقرة ونخلة، و تمره ونخله وهذا الاستعمال يوافق استعمال العربية الفصحى (٥) .

(١) ينظر: إصلاح المنطق، لابن السكيت، ٣٥٨، والصحاح، للجوهري (سكر) ٦٨٧/٢، والمزهر، للسيوطي ٢١٧/٢ .

(٢) أضواء على لغتنا السمحة، محمد خليفة التونسي، ص ١٥٦، ١٥٧ .

(٣) التطوير اللغوي مظاهره وعمله وقوانينه، د/ رمضان عبد التواب، ص ٥٥، ومقدمة البلغة، ص ٤٧ .

(٤) التطوير اللغوي مظاهره وعمله وقوانينه، ص ٥٦، ومقدمة البلغة، ص ٤٧ .

(٥) البلغة، ص ٨٣ .

وهذا المسلك في التذكير والتأنيث كان شائعاً في اللهجات العربية القديمة إذ أورد أبو حيان في البحر المحيط أن "الجنس المميز مفرد بهاء التأنيث يؤنث في لغة الحجاز ويذكر في لغة تميم ونجد، وقد جاء القرآن بهما" (١).

إن هذا الاستعمال عند عوامنا لا يقتصر على الألفاظ التي ميّز مفردها بهاء التأنيث، بل هو عام ويشمل الأسماء الأخرى التي عُرف تأنيثها عن طريق السماع. وهذا ما تتناوله الفقرة التالية.

٥- ألفاظ يستوي فيها التذكير والتأنيث، والتأنيث ورد فيها عن طريق السماع، لأنها لا تحمل علامات التأنيث المعروفة.

فالعامة عندنا يذكرون ما أصله التأنيث باسم الإشارة، كقولهم: هذا الدار، وهذا لكرّاع، وهذا البير، وهذا الفأس، وهذا لكرش، وهذا البيت، وهذا لعجوز، وهذا السوق (٢).

لكن العامة عندما يخبرون عن هذه الألفاظ نجدهم ينطقون صفاتها مؤنثة، فيقولون: هذا الدار كبيره، وهذا الكرّش مليانه، وهذا لعجوز مسكينه، وهذا البير ضيقه، وهذا لكرّاع سمينه. وهذا الاستعمال مسموع في مناطق الشرق الجزائري والجنوب عامة.

واسم الإشارة في الجمل المتقدمة يلاحظ أنه متقدم على المشار إليه، لكنهم عندما يؤنثون تلك الأسماء فإن اسم الإشارة يأتي مؤخراً في الرتبة وقد لا يتلفظ به ويكتفى بالصفات لاغير، نحو: اليد ذى لَمْنُه؟ (هذه اليد لمن؟)، والريح قاويه (الريح قوية)، والموس ذى ماضيه (هذه الموسيقى حادة)، والفرس ذى جرّايه (هذه الفرس سريعة الجري).

ومن الأسماء أيضاً التي يقع فيها التذكير والتأنيث: الذراع، والطريق، والنحل، والكسف، والرجل، ولرنب، ولعسل، والسماء، والموت، ولكتف،

(١) البحر المحيط ٣/ ٣٨٠، وينظر: المزهري ٢/ ٢٧٧.

(٢) تنطق السين صاداً عند سكان الجنوب.

والزقاق، واليد، ولتصل، والعود (الفرس)، والصبع، والزيت . يقول " بني
فيتح " : الزيت الحرّ دوا . فلفظ (الزيت) مؤنث، ويقولون: كصَبَوُ الزيت
يَطْلَعُ فوك. (١) أي: عندما يصفى الزيت فوق الماء . فلفظ (الزيت) في العبارة
مذكر (٢).

وقد ثبت من استقراء الصيغ المسموعة أن استعمال اسم الإشارة المفرد
المذكر أكثر اطرادا مع هذه الأسماء .

ولعل هذا الاستعمال، أي تذكير الأسماء المؤنثة، يرجع إلى إحساس
العامة عندنا بأن من سمات التذكير التعظيم كما هو الحال عند القبائل العربية
القديمة (٣) . وليس الأمر ببعيد أن تكون العامية الجزائرية مسايرة في تطورها
للغة العربية الفصحى، لأن " الأسماء التي تدل في العربية على التذكير والتأنيث
في آن واحد تميل في تطورها إلى الاستقرار على حال واحدة، وهي التذكير " (٤).

إن هذه الألفاظ التي وردت على ألسنة العامة بالتذكير والتأنيث تعود
إلى أصول قديمة في العربية الفصحى ولهجاتها، ولذلك لانجانب الصواب إذا
قلنا: إنها امتداد لما استعملته العربية . فقد روت كتب اللغة ومعجماتها بعض
الألفاظ معزوة بالتذكير إلى قبيلة وبالتأنيث إلى قبيلة أخرى، فمثلا:

- السوق : يذكره التميميون ويؤنثه الحجازيون (٥)
- الزقاق : يذكره التميميون ويؤنثه الحجازيون (٦)
- الطريق : يذكره التميميون ويؤنثه الحجازيون (٧)
- السماء : يذكره التميميون ويؤنثه الحجازيون (٨)
- التمر : يذكره التميميون ويؤنثه الحجازيون (٩)

(١) فوك: فوق، لأن الجليليين ينطقون القاف كافاً باطراد

(٢) ينظر: لهجة جيجل وعلاقتها بالعربية الفصحى، ١٥٠

(٣) لهجة تميم وأثرها في العربية الموحدة، غالب فاضل المطلبي، ص ٢٧٨.

(٤) من اسرار اللغة، ١٦١.

(٥) المذكر والمؤنث، لابن التستري، ٨٥، والصاح (زقق) ١٤٩١/٤، والبلغة، ص ٨٣، والمزهر

٢٢٥/٢.

(٦) الصاح (زقق) ١٤٩١/٤، وصبح الأعشى، للقاقتندي ١٥٥/١.

(٧) الصاح (زقق) ١٤٩١/٤، والمخصص ١٧/١٧، والمزهر ٢٢٥/٢.

(٨) المذكر والمؤنث، لابن التستري، ٨٢، والبحر المحيط ٨٣/١.

(٩) المزهر ٢٧٧/٢.

الذهب : يذكره التميميون ويؤنثه الحجازيون^(١).

ومن الألفاظ التي وردت بالتذكير والتأنيث ولم تعز لقبيلة معينة: العرس^(٢)، والموسى^(٣)، والذراع^(٤)، والزيد^(٥)، وهذه الكلمة الأخيرة يستعملها العامة بالتأنيث لا غير، فتتطوق بالتاء (الزيدة)^(٦)، ومثلها أيضاً المشط، فالعامة ينطقونها بالتاء (المشطه)^(٧).

هكذا تبدو ظاهرة الجنس من الظواهر الصعبة التي يقف الدراس إزاءها حائراً في تحديد الضوابط التي تتحكم فيها. فهذا برجشتراسر يقول بشأنها: "ظاهرة التذكير والتأنيث من أغمض أبواب النحو، ومسائلهما مشكلة"^(٨).

أما فنديس فيرى أن " التمييز بين الأجناس النحوية لا يقوم على شيء من العقل: إذ لا يمكن لإنسان كائناً من كان أن يقول لماذا كانت table (مائدة) و chaise (مقعد) و salieret (إناء ملح) مؤنثة في حين كانت tabouret (مقعد مطبخ) و fauteuil (مقعد بجوانب) و sucrier (إناء السكر) مذكرة"^(٩).

وعلى هذا الأساس فإن معرفة سبب تأنيث هذا اللفظ وتذكير ذلك، أو لماذا استوى التذكير والتأنيث في ألفاظ دون أخرى أو لماذا جاءت علامات دالة على التأنيث في ألفاظ، ولم تجئ في ألفاظ أخرى. تبقى من الأمور الغامضة، ولعلها ترجع إلى ما ارتبطت به صفة الجنس في أذهان الشعوب من أفكار متباينة، هذه الأفكار التي يقف الباحث إزاءها حائراً في تحديد طبيعتها^(١٠). ولهذا قال الدكتور إبراهيم أنيس: " يجب أن نعترف بتلك الحقيقة الملوسة في كل اللغات وهي أن فكرة التأنيث والتذكير قد اختلطت بعناصر لا تمت للمنطق العقلي بسبب"^(١١).

(١) التهذيب (ذهب) ٢٦٣/٦، والمزهر ٢٧٧/٢.

(٢) المخصص ١٩/١٧، والمزهر ٢٢٤/٢.

(٣) إصلاح المنطق، ص ٣٥٩، والمخصص ١٧/١٧، والمزهر ٢٢٤/٢، وصبح الأعشى ١٥٥/١.

(٤) المذكر والمؤنث، لابن التستري، ص ٧٦، وشرح جمل الزجاجي ٣٧٦/٢، والمخصص ١٣/١٧.

(٥) اللسان (زيد) ٥/٣.

(٦) العامية الجزائرية وصلتها بالعربية الفصحى، ص ٤٠.

(٧) العامية الجزائرية وصلتها بالعربية الفصحى، ص ٥١.

(٨) التطوير النحوي للغة العربية، ص ١١٢.

(٩) اللغة، ص ١٢٧.

(١٠) لهجة تميم وأثرها في العربية الموحدة، ص ٢٨١.

(١١) من أسرار اللغة، ص ١٦٤.

لكن هذه الصعوبة لم تثن عزيمة الدراسين- منذ القديم- في محاولتهم تفسير ظاهرة الجنس، فهذا الدكتور علي عبد الواحد وافي يقدم لنا تفسير التأنيث لفظ (الرأس) في عامية بعض المصريين، إذ أرجع ذلك إلى تأثير الأعضاء المؤنثة المجاورة لها، وهي العين والأذن^(١).

وهذا اللفظ نفسه جاء في العربية الفصحى مذكراً، وفي العامية الجزائرية مذكراً ومؤنثاً، ولعله كذلك في لهجات عامية أخرى في الأقطار العربية مما يستوي فيه التذكير والتأنيث أيضاً، لكن الأعضاء المجاورة لها هي نفسها. فهل نقول: إن لفظ (الرأس) استعمل مذكراً في عامية الجزائريين أو في عاميات أخرى لأنه مجاور لأعضاء مذكرة مثله؟ سؤال يحتاج إلى إجابة مقنعة. ولعل تأنيث كلمة (الرأس) يرجع إلى- كما يقول الدكتور إبراهيم أنيس-: "رواسب سامية قديمة احتفظت بها اللهجات الحديثة"^(٢). وهذا

الأمر يحتاج إلى تحقيق علمي دقيق .

لا شك أن "تطور انتقال الكلمة في تطورها من التذكير إلى التأنيث أمر يحتاج إلى معرفة الظرف الاجتماعي الخاص، الذي يبرز مثل هذا التطور"^(٣).

هذه هي الملامح العامة التي تحدد استعمال ظاهرة الجنس في العامية الجزائرية وصلة هذا الاستعمال بما ورد في العربية الفصحى ولهجاتها؛ القديمة والحديثة، وكما ذكرت فإن تحديد الضوابط اللغوية المتحكمة في الظاهرة تبقى من الأمور التي يصعب على الباحث أن يقدم بشأنها رأياً قاطعاً، رغم اهتمامات الباحثين المستمرة.

(١) علم اللغة، ص ٣١٦ .

(٢) من أسرار اللغة، ص ١٦٥ .

(٣) من أسرار اللغة، ص ١٦٥، وينظر: الفوارق النحوية بين اللهجات العربية الفصحى، ١١٥ .

وفي ضوء ما تقدم يمكن أن نخلص إلى الملاحظات الآتية:

- ١- الجنس ظاهرة عامة في اللغات البشرية، وتختلف اللغات في استعماله.
- ٢- تقسم اللغات البشرية الأسماء من حيث الجنس ثلاثة أقسام: مذكر، مؤنث، ومحايد، ولا تعرف اللغات السامية- ومنها العربية ولهجاتها- المحايد.
- ٣- علامات التانيث في اللغات السامية ثلاث، هي: التاء والألف المقصورة والممدودة.
- ٤- اختلفت العلامتان الألف المقصورة والممدودة من العامية الجزائرية، والعاميات العربية المعاصرة، وحلت محلهما التاء.
- ٥- خالفت العامية الجزائرية الفصحى في تانيث الأسماء والصفات التي جاءت على أوزان (فاعل، وفعل، وفعل، وفعل)، إذ أنثت بالتاء في العامية.
- ٦- يطرّد استعمال لفظ (زوجة) بدل (زوج)، وهو استعمال قديم أثر عن قبيلة تميم استعماله، وهي من القبائل التي أخذت عنها العربية الفصيحة، مع أن بعض اللغويين أدرجوا هذا الاستعمال ضمن ما أسموه باللحن.
- ٧- تعامل العامة الألفاظ المؤنثة السماعية في الفصحى معاملة الألفاظ التي تؤنث بالتاء.
- ٨- تتفق العامية الجزائرية مع العاميات العربية المعاصرة، ومع بعض اللغات السامية، كالعبرية والآرامية في ظاهرة الوقف بالفتحة على آخر الاسم الذي ينتهي بالتاء.

٩- موافقة العامية الجزائرية اللهجة التميمية في تذكير ما مفردة هاء التانيث.

١٠- استعملت العامية الجزائرية الأسماء التي وردت في العربية الفصحى بالتذكير والتانيث، - وكان التذكير فيها أكثر- بنفس الاستعمال.

١١- مالت العامية إلى تذكير الأسماء المؤنثة، وهو مظهر عام في العربية الفصحى.

١٢- ظاهرة الجنس من الأمور التي يصعب تحديد طبيعتها، لأنها اختلطت بعناصر لا تمت للمنطق العقلي بصلة^(١).

١٣- وأخيرا فإن ظاهرة الجنس لا تخضع لقياس مطرد، وقد ألمح إلى هذا الأمر قديما ابن التستري الكاتب (ت ٣٦١هـ)، إذ قال: " ليس يجري أمر المذكر والمؤنث على قياس مطرد، ولا لهما باب يحصرهما كما يدعى بعض الناس"^(٢).

(١) لهجة تميم وأثرها في العربية الموحدة، ص ٢٧٨ .

(٢) المذكر والمؤنث، ص ٤٧ .

مصادر البحث ومراجعته

- ١- إصلاح المنطق: يعقوب بن إسحاق، تح : أحمد محمد شاكر،
وعبد السلام هارون، دار المعارف بمصر، ط:٣، (د٠ت)٠
- ٢- أضواء على لغتنا السمحة" سلسلة كتاب العربي" : محمد خليفة
التونسي، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٨٥ م٠
- ٣- البحر المحيط: أثير الدين أبي عبد الله محمد بن يوسف بن علي
بن يوسف بن حيان الأندلسي الغرناطي، مطبعة السعادة بمصر،
ط:١، ١٣٢٨هـ٠
- ٤- البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث: أبو البركات ابن الأنباري،
تح : د/ رمضان عبد التواب، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٠ م٠
- ٥- التطوير النحوي للغة العربية: ج٠ برجشتراسر، تح :
د/ رمضان عبدالتواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ودار الرفاعي
بالرياض، ١٩٨٢م٠
- ٦- التطوير اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه : د/ رمضان عبد التواب،
مكتبة الخانجي بالقاهرة، ودار الرفاعي بالرياض، ط : ١٩٨١م،
ط: ٢، ١٩٩١م٠
- ٧- تهذيب اللغة: أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، تح:
عبد السلام هارون وآخرين، الدار المصرية للتأليف والنشر،
القاهرة، ١٩٦٤-١٩٦٧ م٠
- ٨- الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث: محمد حسين
آل ياسين، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط : ١، ١٩٨٠م٠

- ٩- دور الكلمة في اللغة : ستيفن أولمان، ترجمة :
د/ كمال محمد بشر، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٧٣م .
- ١٠- شرح ابن عقيل : بهاء الدين بن عقيل المصري المهداني، تح :
محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر للطباعة والنشر
والتوزيع، ط: ٦، ١٩٧٤م .
- ١١- شرح جمل الزجاجي: ابن عصفور الإشبيلي، تح :
د/ صاحب جعفر أبو جناح، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة
الموصل، العراق، ١٩٨٢م .
- ١٢- شرح الفصيح : ابن هشام اللخمي، تح :
د/ عبد الكريم عوفي (دكتوراه مخطوطة)، جامعة الجزائر،
١٩٩٢م .
- ١٣- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القلقشندي، المؤسسة المصرية
العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، " نسخة مصورة عن
الطبعة الأميرية"، (د٠ت) .
- ١٤- الصحاح " تاج اللغة وصحاح العربية " : اسماعيل بن حماد
الجوهري، تح : أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين،
بيروت، ط: ٣، ١٩٨٤م .
- ١٥- العامية الجزائرية وصلتها بالفصحى : د/ عبد المالك مرتاض،
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٨١م .
- ١٦- علم اللغة : د/ علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر للطبع
والنشر، القاهرة ط: ٧، (د٠ت) .

١٧- علم اللغة العربية " مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية " : د/ محمود فهمي حجازي، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٣م.

١٨- الفوارق النحوية بين اللهجات العربية الفصيحة، : عبد الجليل مرتاض، رسالة ماجستير مخطوطة، جامعة الجزائر، ١٩٨٢م.

١٩- الكافية في النحو: جمال الدين أبي عمرو عثمان بن عمر، المعروف بابن الحاجب، شرح: رضي الدين الأسترابادي، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).

٢٠- لسان العرب المحيط : ابن منظور الإفريقي، تقديم عبدالله العلايلي، ترتيب يوسف خياط، دار الجيل، بيروت، دار لسان العرب، بيروت، ط : ١٩٨٨م.

٢١- اللغة : ج. فندريس، تعريب عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مطبعة لجنة البيان العربي، ١٩٥٠.

٢٢- لهجة بريكة وعلاقتها بالعربية الفصحى " دراسة لغوية وصفية " : عبد الكريم عوفي (ماجستير مخطوطة)، جامعة قسنطينة، ١٩٨٦م.

٢٣- لهجة تلمسان وعلاقتها بالعربية الفصحى (ماجستير مخطوطة): التيجيني بن عيسى، جامعة تلمسان، ١٩٩٠- ١٩٩١م.

٢٤- لهجة جيجل وعلاقتها بالعربية الفصحى " دراسة لغوية لل لهجة بني فـح " (ماجستير مخطوطة) : بلقسام بلعرج، جامعة عنابة، ١٩٨٦م.

٢٥- لهجة تميم وأثرها في العربية الموحدة: غالب فاضل المطلبي، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٨.

- ٢٦- المخصص : أبو الحسن علي بن إسماعيل، المعروف بابن سيده، تح: لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، (د٠ت)٠
- ٢٧- المذكر والمؤنث: ابن التستيري الكاتب، تح : د/ عبد المجيد هريدي، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ودار الرفاع بالرياض، ط : ١، ١٩٨٤م٠
- ٢٨- المذكر والمؤنث : أبو بكر بن الأنباري، تح : محمد عبد الخالق عضية، مطابع الأهرام التجارية بالقاهرة، ١٩٨١م٠
- ٢٩-المزهر في علوم اللغة وأنواعها: عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، تح : محمد أحمد جاد المولى وآخرين، دار التراث بالقاهرة، ط : ٣، (د٠ت)٠
- ٣٠- معجم تيمور الكبير في الألفاظ العامية ج ٢ : أحمد تيمور، تح : د/ حسين نصار، الهيئة العامة للتأليف والنشر، ١٩٧١م٠
- ٣١- من أسرار اللغة : د/ إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط : ٦، ١٩٧٨.
- ٣٢- الموشح : أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني، تح : علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر، ١٩٦٥م